الباب الثاني
في
الطلول والآثار

الفصل الأول: نظرة إجمالية في الأماكن الأثرية

الفصل الثاني: بئر السبع

الفصل الثالث: تل جمة

الفصل الرابع: تل الفارعة

الفصل الخامس: تل الملح

الفصل السادس: الخلصة

الفصل السابع: رحيبة

الفصل الثامن: السعدي

الفصل التاسع: سبيطة

الفصل العاشر: مشرفة

الفصل الحادي عشر: أم صربوط

الفصل الثاني عشر: عبدة

الفصل الثالث عشر: عصلوج

الفصل الرابع عشر: العوجا

الفصل الخامس عشر: كرنب

الفصل السادس عشر: مشاش الملح

الفصل السابع عشر: الوطن

الفصل الثامن عشر: تل الحسى

الفصل الأول
نظرة إجمالية في الأماكن الاثرية

نشرت حكومة فلسطين في العدد ٧٦ من الوقائع الفلسطينية أسماء المواقع القديمة والأماكن الأثرية الكائنة في قضاء بئر السبع. ولقد رتبت هذه المواقع على النسق التالي ليسهل الرجوع إليها:

١- أبو تلول «خربة»
٢- أبو الحمام «بئر»
٣- أبو دلاخ «تل»
٤- أم بغق «قصر قديم»
٥- أم بطين «خربة»
٦- أم الجرار «خربة»
٧- أم دبكل «خربة»
٨- أم دمنة «خربة»
٩- أم رجل «خربة»
١٠- أم الرجوم «خربة»
١١- أم الرمامين «خربة»
١٢- أم عادرة «خربة»
٣٢- سبيطة «خربة كبيرة»
٣٣- سعوة «خربة»
٣٤- السقاطي «تل وبئر»
٣٥- السكرية «بئر وخربة»
٣٦- الشريعة «تل»
٣٧- عبدة «خربة على جبل»
٣٨- عجلان «خربة»
٣٩- عد عدة «خربة»
٤٠- عرعرا «خربة وآبار»
٤١- عسيلة «خربة»
٤٢- العصلي «خربة»
٤٣- عصلوج «آبار»

١٣- أم كلخة «خربة»

١٤- البحيرة «قصر قديم»

١٥- بطيحة «خربة»

١٦- البها «خربة»

١٧- بيرين «بئر وخربة»

١٨- جمة «تل»

١٩- الجندي «خربة»

٢٠- الجهينية «قصر قديم»

٢١- حداده «خربة»

٢٢- الحسي «تل»

٢٣- الحمام «خربة»

٢٤- حورة «خربة»

٢٥- الخلصة «خربة وبئر»

٢٦- خويلفة «خربة وآبار»

٢٧- دبيس «تل»

٢٨- دياب «خربة وآبار»

٢٩- رحيبة «خربة وبئر»

٣٠- زبالة «خربة»

٤٤- العصيبي «خربة»

٤٥- العطاونة «رسم»

٤٦- عمرة «خربة وبئر»

٤٧- عوجا «خربة وآبار»

٤٨- الغرة «خربة على جبل»

٤٩- فطيس «بئر»

٥٠- القاضي «خربة»

٥١- قاووقة «خربة»

٥٢- كرنب «خربة كبيرة»

٥٣- كسيفة «خربة كبيرة»

٥٤- اللقية «تل»

٥٥- لويبة «عيون»

٥٦- المركبة «خربة»

٥٧- مرشان «خربة وبئر»

٥٨- المشاش «تل»

٥٩- المطلة «خربة»

٦٠- المكحز «خربة»

٦١- الملح «تل»

٣١- زمارة «خربة»

٦٢- المليحة «تل»

٦٣- المويلح «عين»

٦٤- النجيلة «تل»

غير أن هناك خرائب أخرى لم تذكر في الكشف الرسمي، نذكر منها:

١- أبو حطب «خربة»

٢- أم باطية «خربة»

٣- بئر سبع «خرائب وآبار»

٤- تل الفارعة «خربة»

٥-تنير «خربة»

٦- حضيرة «خربة»

٧- حميدة البير «خربة»

٨- خربة بن زيدان «خربة»

٩- رجم البلوي «خربة»

١٠- رقيدية «خربة»

١١- رسيسية «ماء»

١٢- زحيليقة «خربة»

١٣- الشمسانيات «خربة»

١٤- الشوشة «خربة»

١٥- عديد «آبار»

١٦- غرقدة «خربة»

١٧- غزة «خربة»

١٨- قصر الثلمة «قصر قديم»

١٩- قصر السر «قصر قديم»

٢٠- كحلة «خربة»

٢١- مكحول «خربة»

٢٢- مشرفة «خربة على تل»

٢٣- مولدة «خربة»

الوطن «خربة»

لا نملك سوى النذر اليسير من المعلومات والأخبار عن المواقع الأثرية المتقدم ذكرها.

وجل ما لدينا في هذا الصدد مبني على الحدس والتخمين.

فإذا قيل لك: إن المدينة الفلانية أنشئت في العهد البيزنطي مثلا- فليس يعني هذا القول أنه لم يكن ثمة بلد في العهد الروماني، أو النبطي، أو أي عهد آخر من العهود التي تقدمته.

إذ علَّمنا التاريخ أنه كلما دخلت أمة من الأمم ناحية من نواحي هذه الكرة الأرضية عبثت بآثار الأمم التي تقدمتها، أو أضافت إلى تلك الآثار شيئًا من عندها مما يلائم ذوقها أو حاجة الزمن الذي تعيش فيه.

ولكن الأسباب والعوامل التي كانت تحدو بالأمم لانتقاء المنازل واحدة- تكاد لا تتغير، وهي توفر أسباب المعيشة من جهة، والدفاع من جهة أخرى.

وكثيرًا ما تخدع الظواهر علماء الآثار فيستنتجون من قطعة أثرية يجدونها في مكان من الأمكنة- أن ذلك المكان كان باحتلال أمة من الأمم قد لا تكون وطئت ذلك المكان بالمرة.

فلنشرع الآن في استنطاق بعض الرسوم والأطلال التي عثر الباحثون عليها في هذه البلاد:

الفصل الثاني
في
بئر السبع

١- واقعة في أرض هي في الأصل من أملاك الزربة والمحمديين من العزازمة، تبعد عن الخليل وعن غزة خمسون كيلو مترًا، وتربطها بالأولى طريق معبدة، وبالثانية درب لا تستطيع السيارة اجتيازها في وقت المطر.

ويعيش فيها ثلاثة آلاف نسمة.

وهي في الوقت الحاضر مركز القضاء، وعصبة الحساس من الوجهتين: الإدارية والتجارية.

وأن عدد سكانها يزداد وينقص تبعًا للمَحْل والخصاب.

٢- كانت في الأزمنة القديمة أهم منها اليوم؛ إذ إنها كانت واقعة عند ملتقى عدة طرق تجارية أهمها:

(أ) طريق العقبة- غزة:

وهذه كانت تمر من المواقع التالية: العقبة- عين الدفية- عين غضيان- عين غرندل- الغمر- عين لويبة- وادي المرة- نقب غارب- عصلوج- بئر السبع- غزة.

(ب) الدرب التي تربط الخليل بالعقبة:

وكانت هذه تمر بالمواقع التالية: الخليل- بئر السبع- الخلصة- رحيبة- بير يبرين- رأس سرام- قصيمة- عرايف الناقة- كنتلة- نقب العقبة- العقبة.

٣- ذكرت بئر السبع في مواضع متعددة في أسفار العهد القديم.

راجع الإصحاحين ٢١ و٢٦ من سفر التكوين، والإصحاح ٢٠ من سفر القضاة، والإصحاح ١٩ من أخبار الأيام الثاني، والإصحاحين ١٥ و١٩ من سفر يشوع، والإصحاحين الخامس والثامن من سفر عاموس.

هذه الأسفار هي الأشعة الأولى التي جاد بها الدهر، فألقاها على تاريخ هذا البلد القديم.

٤- اعتاد الناس أن يطلقوا على هذه المدينة -وبالتالي على هذه البلاد- اسم «بئر السبع»؛ وأنا أيضًا سرت على هذه الخطة عملا بالقول المأثور: الغلط المشهور خير من الفصيح المهجور.

ولقد ذهب المعلم بطرس البستاني في كتابه «دائرة المعارف» إلى أن اسمها الحالي قد يكون مأخوذًا من اسم «السبع» للحيوان المفترس المعروف، وهذا خطأ فادح.

وذهب كثيرون إلى أنها سميت كذلك بالنظر لوجود سبعة آبار فيها، ومن هؤلاء مؤلفو الموسوعة البريطانية The Eneyelopeadia Britaniea وهذا أيضًا خطأ؛ إذ إنها عندما سميت «بئر سبع» لم يكن فيها سوى بئر واحدة.

إن قصة العتاب الذي جرى بين سيدنا إبراهيم وبين أبيمالك ملك الفلسطينيين من أجل هذه البئر والميثاق الذي قطعاه لدليلٌ واضح على أن اسم الموضع «بئر سبع» لا «بئر السبع».

راجع ما قيل عن الأعنز السبعة في الباب الأول من هذا الكتاب.

٥- إذًا عندما نزل إبراهيم هذه البلاد كان فيها سكان وكان لها أهل، والرواية القائلة إنه هو أول من نزلها ليست بصحيحة.

فإذا سلمنا بهذه الحقيقة وجب علينا أن نسلم بحقيقة أخرى، وهي أن هؤلاء

السكان لم يختاروا الموضع الذي كانوا فيه إلا لوجود الماء فيه، ولولا ذلك ما نزلوه.

٦- كل ما قيل عن الموضع الذي حفر فيه إبراهيم بئره وعن الآبار التي حفرت بعدئذ لم يخرج عن دائرة الحدس والتخمين.

فلنأت إذًا هنا على ذكرها كما هي، فنقول:

عدد متسلسل	اسم البئر	صاحب البئر	ملاحظات
١	بئر العكلوك	محمود يوسف العكلوك	يعتقد الفرنجة وقسم كبير من الأهلين أن هذه البئر هي بئر الخليل إبراهيم، وأنها بئر قديمة جدًّا، كانت قديمًا من أملاك (سويلم بن عرفان) شيخ السواخنة، واقعة شرقي البلد.
٢	بئر النشل	المجلس البلدي	أكبر الآبار حجمًا وأغزرها ماء، استولت عليها الحكومة التركية وسلمتها للبلدية.
٣	بئر الشوا	ورثة الحاج سعيد الشوا	بئر قديمة كانت مهدومة، ثم حفرها «عودة أبو قبيلة» شيخ الزربة، واقعة في حارة البيطار.
٤	بئر المفتي	ورثة عبد الحي الحسيني	بئر قديمة كانت مهدومة، ثم حفرها «سويلم بن عرفان» شيخ السواخنة، واقعة قبلي سوق الحيوانات.
٥	بئر الملطعة	عبد الله حسين الملطعة	بئر قديمة كانت مهدومة، ثم حفرها «حسين بن سالم الملطعة» شيخ المحمديين، واقعة شرقي القصبة.

عدد متسلسل	اسم البئر	صاحب البئر	ملاحظات
٦	بئر داود خليل	ورثة داود خليل الكاتب	اشترى حسين أبو كف، شيخ قديرات أبي كف من حسين بن سالم الملطعة شيخ المحمدين قطعة من الأرض شاركه في حصصها بعدئذ داود أفندي خليل الكاتب، وفيما كانا يعمرانها ويبيتانها للزرع عثرا على هاتين البئرين القديمتين، فاقتسماهما والأرض. فكان نصيب كل منهما كما ترى في الجدول.
٧	بئر أبي كف	١- حسين أبو كف ٢- عبد الرحمن الحرثاني ٣- نعمان علي الصفدي	
٨	البئر الصغير	المجلس البلدي	من الآبار الجديدة التي حفرتها الحكومة التركية في أوائل تأسيس السبع، ونسفتها عند انسحابها كي لا يستفيد من مياهها الجيش الإنكليزي. وقد عمرها المجلس البلدي بعد الاحتلال.
٩	بئر الحكومة	الحكومة	حفرتها الحكومة التركية عام ١٩١٥، وهي واقعة شرقي المدينة، وقد تم الاتفاق مؤخرًا لأجل تسليمها إلى المجلس البلدي، على أن يقدم هذا إلى مصالح الحكومة ودواوينها الرسمية ما تحتاج إليه من ماء مجانًا، في بحر الخمس سنوات الآتية.

عدد متسلسل	اسم البئر	صاحب البئر	ملاحظات
١٠	بئر الحكومة	الحاج عيسى بسيسو	حفرتها الحكومة التركية عام ١٩١٥، وهي على بعد مائتي مترًا من البئر ذات الرقم ٩، وقد باعتها حكومة فلسطين إلى صاحبها الحالي عام ١٩٢٦م.
١١	بئر الجامع	الحكومة	حفرت في زمن حكومة تركيا في أوائل تأسيس السبع، ولكنهم لم يعثروا فيها إلا على ماء مالح وضئيل بالرغم من أنهم نزلوا ما يقرب من التسعين مترًا، واقعة وراء الجامع الكبير وفي أرض يملكها الأمير شكيب أرسلان وورثة الحاج سعيد أفندي الشوا.
١٢	بئر السكة	الحكومة	إن هاتين البئرين من الآبار الجديدة التي حفرتها الحكومة التركية عام ١٩١٥م لأجل استعمالها لتسيير القاطرة البخارية، وقد دمرهما الأتراك يوم انسحبوا من هذه البلاد.
١٣	بئر السكة	الحكومة	
١٤	بئر الحلبي	ورثة الحاج مصطفى الحلبي	حفرت عام ١٩١٠م، وهي واقعة في شارع العطاونة.
١٥	بئر اليهودي	الحاج عيسى بسيسو	حفرها الآضون ماير اليهودي عام ١٩١٢م ثم باعها إلى صاحبها الحالي

عدد متسلسل	اسم البئر	صاحب البئر	ملاحظات
			وكان ذلك عقب الاضطرابات التي حدثت في فلسطين عام ١٩٢٩م وهي واقعة في سوق القصبة.
١٦	بئر الحمام	١- ورثة الحاج سعيد الشوا ٢- ورثة شاكر البيطار ٣- الحاج محمد البيطار	حفرت عام ١٩٠٩م، وهي واقعة بالقرب من الحمام القديم.
١٧	بئر الواد	١- ورثة الحاج سعيد الشوا ٢- ورثة شاكر البيطار ٣- الحاج محمد البيطار ٤- نعمان وعلي الصفدي ٥- عبد العزيز الصفدي	حفرت عام ١٩٢٦م، والذين حفروها هم أولاد الصفدي في أرض الشوا والبيطار. على حافة الوادي قبلي البلد.
١٨	بئر ابن عتيق	سليمان بن عتيق وابن عليان	حفرت قبل الحرب العظمى، وهي واقعة على حافة الوادي قبلي البلد.
١٩	بئر داود خليل	ورثة داود خليل الكاتب	واقعة قبلي الجسر، وقد حفرت عام ١٩٢٤م.
٢٠	بئر داود خليل	ورثة داود خليل الكاتب	واقعة في الجهة الشمالية الشرقية من الجسر، وقد حفرت عام ١٩٣٠م.

عدد متسلسل	اسم البئر	صاحب البئر	ملاحظات
٢١	بئر محروس	محروس بسيسو	حفرت عام ١٩٣١م وهي واقعة في الطرف الغربي من أرض الجسر.
٢٢	بئر الشرباصي	١- ورثة الحاج عطية بصل ٢- صالح بن مصطفى جعرور	حفرها الحاج مصطفى أفندي الشرباصي عام ١٩٢٥م ثم باعها إلى أصحابها الحاليين. واقعة عند منتهى الشارع العام وعلى حافة الوادي من الجهة الشرقية القبلية.
٢٣	بئر البريج	سليمان أبو شريفة	بئر قديمة، ولكنها مهدومة، لم تحفر بعد، واقعة قبلي البلد.
٢٤	بئر الجامع الصغير	الحكومة	بئر قديمة، ولكنها مهدومة، واقعة في الشارع العام وأمام الجامع الصغير الذي أنشأه الحاج عيسى أفندي بسيسو.
٢٥	بئر ابن عرفان	ورثة الحاج عطية بصل	بئر قديمة واقعة على باب قصر ابن عرفان، وعلى حافة الطريق المؤدية إلى الخليل.

٧- ليست هذه الآبار بكافية لسد عوز هذه المدينة، فإن شح الماء الذي كابد أهل السبع مرارته في زمن إبراهيم، والذي أحدث ما أحدث من تخالف وتعاتب وتعاهد بينه وبين أهل السبع في ذلك الحين وبين هؤلاء أيضًا وبين ابنه إسحاق- يكاد لا يختفي شبحه سنة حتى يظهر أخرى.

٨- بقي علينا أن نعرف أين كان موضع السبع في الأزمنة المتقدمة.

هنالك أقوال كثيرة بأن البلد القديم كان فوق «تل مشاش السبع» الواقع على بعد ثلاثة أميال من موقع السبع الحالي للشرق، والبئر أو الآبار التي كان الأقدمون يستقون منها بعيدة عن ذلك الموقع للغرب. ولكن في كلا الموضعين: الشرقي والغربي عثر المنقبون على بقايا آثار تدل على أن هذا وذاك أشغلا وعمرا في أزمنة مختلفة.

إن وجود آثار من العهد البيزنطي -مثلا- في جهة من هاتين الجهتين لا يصح أن يعتبر دليلا على أن تلك الجهة أنشئت من قبل البيزنطيين فقط، أو أن ذلك الموضع هو غير الموضع الذي نزله إبراهيم؛ إذ إن كلا الموضعين قريب للآخر.

وقد علمتنا التجارب أن كل أمة دخلت استغلت آثار الأمم التي تقدمتها، واستعملت كل ما أبقى عليه الدهر من حجارة وآثار في تشييد بنايات طبعتها بطابعها الخاص.

٩- لقد مر بك في الباب الأول من هذا الكتاب روايات العهد القديم عن بئر السبع، ومن هذه الروايات لا بد وأن تكون قد استنتجت ما يلي:

(أ) أن بئر السبع كانت مركزًا دينيًّا هامًّا في عهد بني إسرائيل.

(ب) أنها كانت مركزًا للقضاة أيضًا- كما أنها مركز لقضاة العشائر من البدو في يومنا هذا.

(ج) أنها كانت الحد الجنوبي لفلسطين -كما هي اليوم- إذ كانت هذه تمتد من دان إلى بئر السبع.

ولقد عثر المنقبون على عدة إطارات، وقبضة جرة، وشظية من الفخار الأحمر المطلي يقولون: إنها من بقايا الدورين الساميين الثالث والرابع (١٢٠٠-٨٠٠ ق.م) كما أنهم عثروا على آثار أخرى، هي أقدم عهدًا من الآثار العبرية في هذه البلاد.

وهذا يوافق ما ذهبت إليه عند البحث عن الآبار في السطور المتقدمة.

١٠- ولقد ذكرها أوسابيوس (Eusabius) وجروم (Gerome) في العصر الرابع للميلاد كقرية نامية، وفيها ثكنة رومانية.

وفي الموسوعة البريطانية أن بئر السبع دخلت تحت سيطرة الرومان في عهد تراجان (Tragan) وكان ذلك سنة ٩٨-١١٦م. وكانت في حكمهم سنة ٢٩٧، وظلت كذلك حتى أوائل القرن السابع للميلاد ٦٤١.

١١- هناك في «تل مشاش السبع» بقايا حصن شاده الأقدمون. وفي شرقي الحصن راوبٍ قديمة، وخرائب حجرية، وبقايا كنيسة، ونقود، وكتابات بيزنطية.

تلك هي بقايا بيروسابون (Birosabon) البيزنطية، وقد اختلف في مساحتها آنئذ:

فمن قائل: إنها كبيرة ويستدل على قوله ببقايا الطلول والمقابر الواسعة في الطرف الشمالي الغربي من البلد. وإلا فما المعنى من وجود كنيستين، ومن الأعمدة المكسرة التي وجدت بكثرة في المنازل.

ومن قائل: إنها ما كانت مدينة متسعة الجوانب، وإنما كانت قرية كبيرة.

ولكن هذا الفريق أيضًا يقول: إنها كانت مركزًا لإبرشية هامة، ظلت بقايا كنائسها قائمة حتى القرن الرابع عشر للميلاد، ثم عفت آثارها حتى أنه لم يبقَ منها سوى شقف من أعمدة رخامية وباحة ضيقة مرصوفة بالفسيفساء وبعض أحجار كبيرة مبعثرة هنا وهناك.

ولقد استعمل البعض من حجارتها في بناء مدينة السبع الحالية، والبعض الآخر نقل إلى غزة، ولا يستبعد أن تكون الحكومة التركية قد أباحت تكسير قسم من هذه الحجارة لأجل رصف قسم من الطريق المعبدة بين بئر السبع والخليل، كما أباحت

استعمال حجارة الخرائب الأخرى الواقعة على نفس الدرب[1].

وأما الكتابات والنقوش التي ترجع إلى العهد البيزنطي فقد سرق قسم منها وبيع القسم الآخر، حتى لم يبقَ منها في بئر السبع إلا النذر اليسير.

١٢- لم يبقَ عندي شك بعد أن درست مواقع السبع القديمة منها والحديثة- في أنها كانت في العهد القديم فوق التل الذي يدعى الآن «تل مشاش السبع»، وفي العهد البيزنطي انتقلت إلى حيث البقعة التي شيد فوقها سوق الحيوانات الحالي والعرصات الأخرى التي تحيط بها، ويظهر أن الموضع الذي اختاره الأتراك لتشييد مدينة السبع الحديثة كان مقبرة للروم، وأن الكنيسة التي جاء ذكرها في القرن الرابع عشر للميلاد كانت ما بين هذه المقبرة وبين المدينة القديمة، حتى إنك لتجد قسمًا من الفسيفساء التي ازدانت بها غرف الكنيسة آنئذ لا يزال مرصوفًا رصفًا جميلًا في غرفة من غرف البيت الذي يملكه مختار القصبة الحاج علي أفندي جرادة، وفي القسم من الشارع الذي يصل ما بين البيت المذكور والبيوت المواجهة له.

وهنالك بقايا كنيسة أخرى بجانب البئر في أقصى المدينة للشرق.

١٣- ثم يأتي الفتح الإسلامي.

لا شك في أن السبع كانت مدينة عامرة في العهد الإسلامي، وقد تكون أعمر المدن القائمة في هذه الجهة، ولولا ذلك لما اتخذها عمرو بن العاص -وهو من أكبر قادة المسلمين- مقرًّا له عندما اعتزل العمل في مصر، ولما ولي ابنه عبد الله عليها عندما كان حاكمًا في مصر وعلى رواية أنه مات فيها، وفي بعض الروايات أن سليمان بن عبد الملك أتته الخلافة وهو في السبع.

---

(١) راجع ما كتبناه عن خربة «أم صربوط».

ولكن يظهر أن السبع على ما كانت عليه في ذلك الحين ما كانت لتنشئ الرغبة في قلوب المسلمين ليتخذوها هدفًا لمقامهم، بل كانوا يطمحون لأكثر من ذلك؛ ولهذا اكتفوا بأن اتخذوها ممرًّا يعبرون منه كلما صوبوا أنظارهم إلى مصر، وكان لهم فيها مطمح.

١٤- بعد ذلك التاريخ لم نسمع للسبع ذكرًا، ولسنا نعلم بالضبط التاريخ الذي هدمت فيه إذ كانت مسرحًا للجيوش والغزاة من مصر وسوريا؛ فإما أن تكون هدمت أثناء الحروب الصليبية أو أثناء الفتح التركي.

ومن دواعي الأسف أنني لم أعثر على رواية موثوقة تجلي هذه النقطة الغامضة. ومن يدري؟ لعلها هُجرت هجرًا بسبب المحول.

وقد حدثني السير «فلندرس بتري»[1] أن خراب هذه البلاد وقع في أوقات مختلفة وفي ظروف متنائية لا يمكن حصرها أو إرجاعها إلى عهد واحد.

١٥- ظلت بئر السبع خرابًا بلقعًا حتى عام ١٩٠٠ للميلاد؛ حيث اعتزم الأتراك فصل عربان السبع عن قضاء غزة وتأسيس قضاء جديد باسم «قضاء بئر السبع» وإليك ما جرى:

احتل الأتراك هذه البلاد عام ١٥١٩ للميلاد ولكنهم لم يحكموها حكمًا فعليًّا إلا عام ١٩٠٠م؛ إذ أنهم كانوا يديرونها بواسطة حكامهم في غزة والقدس.

وعندما اشتدت وطأة الحروب الأهلية بين القبائل -ولا سيما حرب الترابين مع العزازمة- فكر الأتراك في تأسيس قضاء منفصل للعربان وكان لهم من وراء ذلك

---

(١) هو العالم الأثري الشهير الذي قام باكتشافات هامة في تل القارعة وتل جمة وتل العجول، والذي تمكن باكتشافاته هذه أن يحدثنا أصدق حديث عن تاريخ هذه البلاد.

غايات أخرى منها الاستفادة من الضرائب التي كانت تذهب هدرًا، ومنها -وهي الأهم- أنهم أرادوا أن يثبتوا وجودهم بالقرب من التخوم المصرية بسبب المفاوضات التي كانت تجري آنئذ حول الحدود، فأسسوا قضاء بئر السبع واتخذوا له مركزًا موقع السبع الحالي، وكان ذلك عام ١٣١٩ للهجرة (١٩٠٠ للميلاد).

لم يكن ثمة أي بناء حجري في هذا الموقع، فنصب القائمقام الأول إسماعيل بك وهو أول من تولى الحكم هنا الخيام (انظر إلى الصورة في الصفحة التالية)، وجعلها مسكنا له ولرُفقائه من الموظفين ومقرًا لإدارة أعمالهم الحكومية، وكانت هذه منصوبة فوق الأكمة التي بنيت فوقها بعدئذ دار الإرسالية الأمريكية.

وابتاعت الحكومة بعد حين من المحمديين ما يقرب من الألف دونم (بثمن قدره ريال مجيدي للدونم الواحد) ووهبتها للمجلس البلدي، على أن يبيع هذا منها إلى من شاء التوطن في بئر السبع من سكان المدن المجاورة[١]؛ كما أنها وهبت كل من شاء التوطن من البدو دونمًا واحدًا من غير أجر ولا عوض، على شريطة أن يبني فوقه دارًا للسكن ويسكنها.

ثم أنشأت الحكومة دارًا لها[٢] اتخذتها مقرًا لأعمالها كما أنها أنشأت ثكنة للجنود، ومنازل أخرى، ورسمت خارطة للمدينة الحديثة على الطراز الهندسي الحديث فقسمتها إلى بقع متساوية، يفصل البقعة والبقعة منها شارع فسيح.

---

(١) وإليك أسماء العائلات التي استوطنت بئر السبع في دورها هذا: البياطرة، البسايسه، الشعوث، الشرباصية، العكاليك، الحلبية، القيسية، الكركية، الصايغ، الشرفات، التركية، النزلي، ال برديني، قطينة وغيرهم.

(٢) إن نفقات هذه الدار ونفقات ثكنة الجند جمعت من البدو.

بئر السبع في بدء عهدها الجديد

لم يمضِ على تأسيسها بضع سنين حتى كبرت فبعد أن كان عدد نفوسها لا يتجاوز الثلاثمائة عام ١٩٠٢م أصبح ينوف على الثمانمائة عام ١٩١١م (انظر إلى الصورة في الصفحة التالية) وقرر الأتراك إعلاء درجتها فجعلوها مركزًا «لمعاون المتصرف».

ولما أعلن الدستور في تركيا وصار فيها ما صار من انقلاب أرجعت التشكيلات الأولى فأمست قائمقامية كما كانت من قبل، وفي هذه الأثناء تولى إدارتها قائمقام نشيط يسمى «آصف بك» فازدادت السبع في حكمه عمرانًا.

ومن البنايات التي تمت في عهده دار البلدية التي اتخذت بعدئذ منزلًا للحكام، وماكينة لسحب الماء من بئر النشل، وحوض[1] تجري المياه إليه لتوزع منه على أطراف المدينة، ومطحنة، وجامع كبير هو غاية في الإتقان من الوجهة الهندسية، ومدرسة ذات طابقين[2]، ودار للبلدية، كما أنه غرس في جنباتها عددًا كبيرًا من الأشجار وأنشأ سلكًا للمخابرات البرقية.

---

(١) أتى بحجارتها من خربة الخلصة، وعلى قول أنه لم يأت منها إلا بحجارة المأذنة.

(٢) هي من حيث الهندسة أكبر وأجمل مدرسة أميرية تملكها حكومة فلسطين في الوقت الحاضر.

بئر السبع عام ١٩١١

ولقد ازداد اهتمام الأتراك بالسبع في مطلع الحرب الكونية ١٩١٤م إذ اتخذوها مركزًا حربيًّا هامًّا للحملة التي وجهوها نحو قناة السويس، فأضافوا إليها كثيرًا من الأبنية وأضاءوها بالكهرباء، وأنشاءوا المخازن في محطة السكة الحديدية التي جعلوها تمر من السبع والعوجاء حيث تجتاز الحدود المصرية من هذه الجهة ورفح من الجهة الأخرى، ولم يمض على حركاتهم هذه ثلاثة أعوام حتى خرجت من أيديهم ودخلت تحت سيطرة الإنكليز (١٩١٧) كما بيننا ذلك في مكان آخر من هذا الكتاب.

١٦- لم يشيد في بئر السبع -في العهد الأخير- بنايات عامة تلفت الأنظار، وإنما ازداد فيها عدد الأبنية التي قام بتشييدها السكان، فازدادت رونقًا (انظر إلى الصورة) وازداد عدد سكانها فأصبح ثلاثة آلاف نسمة بعد أن كان لا يتجاوز بضع مئات.

ولولا المحل المتواصل الذي ترزح تحت عبئه هذه البلاد لأصبحت تضاهي المدن المجاورة لها، ولاستعادت سيرتها الأولى.

بئر السبع اليوم (١٩٣٣)

الفصل الثالث
في
تل جمة

١- تل قديم العهد، يظن أنه هو «جرار» القديمة التي جاء ذكرها في التاريخ أنه واقع في أراضي الترابين، يبعد عن السبع خمسة وثلاثين كيلو مترًا من جهة الغرب للشمال، وعن تل الفارعة اثنا عشر كيلو مترًا للشمال.

جنته مرارًا عديدة، وكنت في كل مرة أستوحي العلم ليهديني إلى العهد القديم إلى أن تمكنت في عقيدة وهي أن تاريخ (تل جمة) هذا له صلة وثقى بتاريخ السبع التي جعلتها همي الوحيد في هذا الكتاب. لا بل بتاريخ قسم كبير من فلسطين إذا لم يخطئني الظن، إذ إن جرارًا كانت عاصمة أبيمالك ملك الفلسطينيين.

٢- ولقد قام السير «فلندرس بتري» Sir Flinders Petrie مدير مدرسة الآثار القديمة الإنكليزية في مصر مع زملائه ستاركي (Starkey) وهاردنغ (Harding) وريزدن (Risdon) بالبحث والاستقصاء في هذا التل عام ١٩٢٦م على أمل أن يتوفق إلى توسيع المعلومات التي جمعها في مصر، فتمكن من الوصول إلى نقاط مهمة من شأنها أن تنير سبيل الباحثين لا عن تاريخ مصر فحسب بل عن تاريخ فلسطين أيضًا.

٣- هناك في أسفل الوادي، وعلى بعد بضعة أميال من موقع التل الحالي توجد خربة يسميها البدو في الوقت الحاضر «أم جرار» وهذه الخربة التي أنشئت في العهد البيزنطي هي ابنة جرار القديمة؛ وهذا ما حدا بالسير فلندرس بتري للاعتقاد بأن «تل جمة» هو جرار؛ لأن الرومان كانوا ينشئون مدنهم الحديثة بالقرب من طلول الأقدمين وليس فوق الطلول نفسها.

٥- ويظهر من منظر التل ومن شكله الطبيعي أنه الآن ليس كما كان في الزمن القديم، وأن الرياح والأمطار قد عرته على ممر الأحقاب، من الأتربة بسبب المحول المتواصلة التي تجول دون زرع دائم. ولكنا مع هذا لا ندري كيف نفسر وجود الشون ومخازن الغلال في زمن الفلسطينيين الذين كانوا يصدرون الغلال إلى كريت.

٦- عثر السير «فلندرس بتري» في هذا التل على آثار استدل منها أنه تعاقبت عليه أدوار ستة من البناء، لا صلة للواحد منها بالآخر: وأتى بالأدلة والبراهين على أن هذه الأدوار كانت من أسفل إلى أعلى، كما يأتي:

سنة ق.م.			
١٤٨٠	تحتمس الثالث	الأسرة المالكة	١٨
١١٩٤	رعمسيس الثالث	الأسرة المالكة	٢٠
٩٣٢	شيشنق الأول	الأسرة المالكة	٢٢
٨١٠	عمازيا	الأسرة المالكة	٢٣
٦٦٠	بسامتيك الأول	الأسرة المالكة	٢٦
٤٥٧	الفرس	الأسرة المالكة	٢٧

أما المصريون من هؤلاء فقد كانوا في حاجة لتحصين هذا الموقع ليتمكنوا من وقاية الدرب العام الذي يصل مصر بالقدس والمنطقة الجبلية من جهة، وطريق الشاطئ التي تأتي من مصر إلى الشمال من جهة أخرى، وليدرءوا عن بلادهم شر الغزوات التي قام بها الآشوريون سنة ٦٧٥ و٦٧٤ و٦٧١ و٦٦٩.

وأما الفرس فقد اهتموا بها، لا من حيث التحصين العسكري، بل من حيث بناء الشون، وليتمكنوا من خزن الحبوب اللازمة إليهم أثناء زحفهم على مصر.

وأما عمازيا فهو الملك اليهودي الوحيد الذي احتل أدوم بعد الملك داود وكان ذلك عام ٨٠١ ق.م. وفي ذلك العهد -أي بين شيشنق وبسامتيك- لم يقم المصريون بغزو هذه البلاد.

٧- المنظر البارز في «جرار» هو ما نجده من الآثار الدالة على وفرة الحبوب فيها في الأزمنة الغابرة.

إن الشون ومخازن الغلة الجسيمة التي أنشئت هناك في عهد الغرس لتنبئنا بوفرة الحبوب التي كانت تنتج في هذه الديار، وما كانت هذه الشون والمخازن لتنشأ في مثل هذا المكان لو لم يكن بالاستطاعة إملاؤها بالحبوب التي تزرع فيه أو حوله.

ولقد عثر المنقبون في نفس الموقع على عدد كبير من المناجل المصنوعة من الصوان والتي كانت تستعمل لحصد الزرع في ذلك الزمان.

إن هذه المناجل من جهة، والشون من جهة أخرى ورواية التوراة عن إسحاق أنه زرع وحصد مائة ضعف الحب الذي بذره- لأدلة واضحة على وفرة الحبوب هنا وأهميتها آنئذ.

ولو فرضنا جدلا أن هذا الاستنتاج غير صحيح أفلا يخطر على البال إذًا هذا السؤال: ماذا كان أبيمالك -ملك الفلسطينيين- يصنع في هذا المكان؟ ولماذا اتخذه عاصمة لملكه؟

يقول السير «فلندرس بتري»: إن الفلسطينيين الذين نشئوا في جبال كريت الصخرية أو في الجنوب الغربي من آسيا الصغرى نزلوا هذه البلاد واستوطنوها ليتمكنوا من الحصول على الحنطة لأجل تصديرها إلى كريت التي ما كانت لتُخرِج ما تحتاج إليه منها بسبب كثرة الجبال ووفرة السكان فيها.

ولهذا لم يكن أبيمالك رئيسًا لقومه فحسب بل كان أيضًا تاجر حبوب يجمع لهم

منها ما يستطيع جمعه ثم يصدره إلى كريت بالسفن.

ومن هنا جاء السبب في الخلاف الذي نشأ بينه وبين إسحاق يوم خاطبه بقوله: (اذهب عنا، فإنك أقوى منا).

٨- ومن آثار الفلسطينيين التي وجدت في جرار كئوس وطاسات يرجع عهدها إلى ١٢٢٠ و١١٦٠ ق.م.

ويظهر أن هؤلاء كانوا يشتغلون بالمعادن، وهذا ظاهر من شيوع استعمال الحديد في العجلات وفي الفئوس والمحاريث وفي معدات الحرب التي استعملوها في ذلك العهد، ولولا ذلك لما تمكنوا من محاربة بني إسرائيل والتغلب عليهم في كثير من حروبهم، وقد أشارت التوراة إلى ذلك في الإصحاح الثالث عشر من سفر صموئيل الأول:

(٥ وتجمع الفلسطينيون لمحاربة إسرائيل، ثلاثون ألف مركبة وستة آلاف فارس وشعب كالرمل الذي على شاطئ البحر في الكثرة. وصعدوا ونزلوا في مخماس شرقي بيت آون ٦ ولما رأى رجال إسرائيل أنهم في ضنك لأن الشعب تضايق اختبأ الشعب في المغاير والغياض والصخور والصروح والآبار ٧ وبعض العبرانيين عبروا الأردن إلى أرض جاد وجلعاد، وكان شاؤل بعد في الجلجال وكل الشعب ارتعد وراءه وتفرق عنه ١٩ ولم يوجد صانع في كل أرض إسرائيل. لأن الفلسطينيين قالوا لئلا يعمل العبرانيون سيفًا أو رمحًا ٢٠ بل كان ينزل كل إسرائيل إلى الفلسطينيين لكي يحدد كل واحد سكته ومنجله وفأسه ومعوله... ٢٢ وكان في يوم الحرب أنه لم يوجد سيف ولا رمح بيد جميع الشعب الذي مع شاول ومع يوناثان ٢٣ وخرج حفظة الفلسطينيين إلى معبر مخماس).

٩- استولى داود على أورشليم ١٠١٠ ق.م وحارب الفلسطينيين فغلبهم على

أمرهم ١٠٠٠ ق.م ثم استولى على أدوم وضبط جرار ٩٩٥ ق.م.

وفي عهد ملك بني إسرائيل كان النفوذ الكريتي باديًا في آثارهم، ولقد تغلغل هذا النفوذ حتى بدا ظاهرًا للعيان حوالي ٧٥٠ ق.م.

١٠- والعدد الكبير من الفخار الذي وجدوه هناك يرجع بالعهد إلى زمن الآشوريين عام ٧٠٠ ق.م الذين قاموا بحملات عديدة في ذلك الزمان على فلسطين ومصر.

١١- وجرار اليوم خربة من أملاك الترابين يقولون لها «أم جرار»، تملكها قبل رجلٌ يدعى «الهرماس» ثم تملكها الحسنات وهم أقرباء الهراميس ثم قام بين هؤلاء وبين النجمات خلاف حولها في عهد المتصرف التركي رستم باشا، كان النصر فيه حليف النجمات.

ومما لا ريب فيه عندي أن كلمة «أبي معيلق»[1] مشتقة من «أبيمالك» ملك الفلسطينيين، وأن «أم جرار» الحالية ليست إلا بقية «جرار» القديمة عاصمة ذلك الملك الذي حدثتنا التوراة عنه أحاديث جمة نقلناها في غير هذا المكان.

---

(١) اسم فريق من الحسنات النازلين في هذه البقعة من الأرض.

الفصل الرابع
في
تل الفارعة

١- هو تل كبير على الضفة اليمنى لوادي الشلالة، واقع في أراضي الصواصين والصوفة من الترابين، ويبعد ثلاثون كيلو مترًا عن السبع للغرب، تربطه بها طريق وإن لم تكن معبدة إلا أنها صالحة لسير السيارات، وحوله أراضٍ أعتقد أنها أخصب بقاع السبع على الإطلاق، غير أن الماء ينقصها، وليس في تلك الجهة مورد ماء لبني آدم وللحيوان سوى الينابيع الضئيلة التي في الوادي نفسه كالقملة، وشنق، والصني.

٢- يعتقد السير «فلندرس بتري» أن «بيت بلت» المذكورة في التوراة هي «تل الفارعة» والسبب الذي حدا به لهذا الاعتقاد وجود شبه بين الاسمين. أن كلمة (פלה) العبرية تعني الهرب أو النجاة. وهذا يوافق المعنى المقصود من كلمة «فر».

وقد نعتبر هذا التشبيه صحيحًا فيما إذا كان اسم المكان الحالي «تل فر» ولكنا لا ندري كيف نوفق بين «تل فر» و«تل الفارعة» إلا إذا تصورنا أن المرء عندما يفر «يتفرع» بمعنى يتعرى من الثياب. والله أعلم بالصواب.

٣- أن أقدم أثر وجد في هذا التل يرجع عهده إلى الهكسوس «ملوك الرعاة» بين سنة ٢٤٠٠ و١٦٠٠ ق.م.

وبهذا تمكنوا من معرفة الشيء الكثير عن هؤلاء الملوك الذين هبطوا هذه البلاد واحتلوا مصر زمنًا طويلا.

إن الطريقة التي اتبعها هؤلاء في إنشاء قلاعهم -هنا وفي غير هذا المكان- هي

إقامة سفح طويل منحدر انحدارًا عميقًا حول مساكنهم، وما كانوا ليكتفوا بإقامة الأسوار والجدران كما كانت تفعل الأمم السامية.

وهذه الطريقة نفسها هي التي اتبعت من لدن سكان السهول في سوريا الشمالية وفي مكان آخر من آسيا الوسطى.

وهذا ما حدا ببعض العلماء والباحثين للاعتقاد بأن الهكسوس قد يكون منشؤهم تلك الجهات.

ولقد أدخل هؤلاء الملوك شمال مصر وفلسطين معًا تحت حكمهم في عهد الأسرة الخامسة عشرة، حتى إنه كان للقطرين مدير خزينة واحد في ذلك العهد، وكان هذا يدعى Ha-al.

٤- لقد سيطر المصريون في عهد الأسرة الثامنة عشرة ١٥٧٠-١٣٧٠ ق.م على فلسطين، وسيطرتهم هذه غيَّرت مجرى الحضارة هنا.

فأخذ النفوذ الفلسطيني المنبعث من كريت يقضي -تحت تأثيرهم وهيبتهم- على آثار الهكسوس شيئًا فشيئًا، حتى أصبحت هذه وقد قضي عليها قضاءً مبرمًا.

وإليك أسماء ملوك مصر الذين عثروا[1] على آثار لهم في تل الفارعة:

رعمسيس	١٣١٨ ق.م
ستي الأول	١٣١٧ ق.م
رعمسيس الثاني	١٢٩٥ ق.م
مرن بتاح	١٢٢٩ ق.م (اشتهر بكثرة اهتمامه بفلسطين)
ستي الثاني	١٢١٠ ق.م (وجدوا اسمه على جرة وقيل: إنه بنى قلعة

(١) Starkey & Harding.

رعمسيس	١١٩٥ ق.م (كان يرمي من غزوه فلسطين إخضاع الشاسو)[١]
رعمسيس	١١٦٣ ق.م
رعمسيس	١١٣٨ ق.م
رعمسيس	١١١٨ ق.م
ياسب خانو	١٠٥٧ ق.م

٥- ولقد وجدوا في الفارعة قبورًا للفلسطينيين يرجع عهدها إلى ما بين ١٣٢٠ و١٠٥٠ ق.م وأما الآثار الفلسطينية المنقوشة فإنها تبدو في عهد ستي الثاني ويعتقد البعض أن هذه البلاد كانت بيدهم حتى عصلوج؛ فهاجمهم العمالقة، وحرقوا عصلوج بالنار.

٦- وسيطر داود عليها حوالي عام ١٠٢٠ ق.م إذ وجدوا في تل الفارعة من الآثار ما حدا بالبحَّاثين للظن بأنها قد تكون من آثار داود وابنه سليمان.

ويظهر أنه كان لهذا التل أهمية كبرى في ذلك العهد؛ إذ اتخذ داود قسمًا من سكانه «حرس شرف» له[٢] وكان رئيس هذا الحرس «بينيا» ابن «يهوادا» الذي كان رئيسًا لمجمع الرب.

٧- لم يجدوا من آثار اليونان في هذا التل إلا النذر اليسير، وهذا النذر يرجع إلى سنة ٥٠٠ ق.م.

٨- وآخر بناء عثروا عليه هناك كان قلعة أنشأها الرومان.

٩- وعثروا أيضًا على مسكوكات ونقود ضربت في القرن الأول بعد الميلاد.

١٠- ووجدوا نقودًا يهودية يرجع عهدها إلى هذا التاريخ نفسه.

---

(١) راجع «سجلات العهد الغابر» لبريستد، الجزء الرابع، الوجه ٤٠٤.

(٢) Sir Flinders Petrie.

الفصل الخامس
في
تل الملح

تل واقع على بعد خمسة وعشرين كيلو مترًا لشرق السبع، واقع في أراضي الظلام، وفي جانبه بئران: واحد (انظر إلى الصورة) كبير يرد إليه جميع الظلام وهو قديم، وآخر أصغر منه ولكنه مردوم وقد كان هناك مخفر بوليس أسس بعد الاحتلال البريطاني لصيانة الأمن في تلك الجهة، إلا أن هذا المخفر نقل إلى الزويرة الفوقا في أواخر العام الفائت.

بئر تل الملح

٢- إنه تل اصطناعي، وهو عبارة عن مجموعة خرائب وآثار ظُن -بادئ ذي بدء- أنها ترجع بالعهد إلى الدور البيزنطي، وقد ذكرها مؤرخو اليونان، فقالوا: إنها Malatha أو Malis، وهذا ما ذهب إليه أوسابيوس من الكتاب البيزنطيين.

٣- وقد ذهب مؤلف «جغرافية الكتاب المقدس» إلى أن هذا الموقع هو «مولادة» التي جاء ذكرها في الإصحاحين الخامس عشر والتاسع عشر من سفر

يشوع، وفي الإصحاح الحادي عشر من سفر نحاميا، وقد قال لي الأب باروا أنها ذكرت في الإصحاح الثامن من سفر صموئيل الثاني، وفي الإصحاح ١٨ من أخبار الأيام الأولى، وفي الإصحاح ١٤ من سفر الملوك الثاني، وفي الإصحاح ٢٥ من أخبار الأيام الثاني.

وإليك بعض ما جاء في هذه الأسفار مما له صلة بهذا المكان:

- الإصحاح ٨ من صموئيل الأول:

(١١ وهذه أيضًا قدسها الملك داود للرب مع الفضة والذهب الذي قدسه من جميع الشعوب الذين أخضعهم ١٢ من آرام ومن موآب ومن بني عمون ومن الفلسطينيين ومن عماليق... ونصب داود تذكارًا عند رجوعه من حربه ثمانية عشر ألفًا من آرام في وادي الملح...).

- الإصحاح ١٤ من الملوك الثاني:

(١ كان أمصيا بن يواش ملك يهوذا ابن خمسٍ وعشرين سنة حين ملك، وملك تسعًا وعشرين سنة في أورشليم... وعمل ما هو مستقيم في عيني الرب ولكن ليس كداود... ٥ ولما تثبتت المملكة بيده قتل عبيده الذين قتلوا الملك أباه ٦ ولكنه لم يقتل أبناء القاتلين... ٧ هو قتل من أدوم في وادي الملح عشرة آلاف...)

- الإصحاح ١٨ من أخبار الأيام الأول:

(... ١٢ وأبشاي بن صروية ضرب من آدوم في وادي الملح ثمانية عشر ألفًا ١٣ وجعل في آدوم محافظين فصار جميع الآدوميين عبيدًا لداود...).

٤- وفيها بقايا فخار من الدورين الثاني والثالث الساميين، وربما ترجع هذه إلى ١٥٠٠-١٠٠٠ سنة ق.م.

إذًا ألا يمكننا أن نجزم أنها ليست بمدينة بيزنطية، إنما هي كنعانية الأصل.

٥- وفي تل الملح قبور عربية وخرائب تدل على أنها كانت مدينة عظيمة وقد ذكرها جغرافيو العرب باسم «ملح».

الفصل السادس

في

الخلصة

١- خربة واقعة في أراضي العزازمة، تبعد اثنا عشر كيلو مترًا عن عصلوج للشمال الغربي وعشرون كيلو مترًا عن السبع للجنوب، ليس فيها الآن سوى الرسوم والأطلال (انظر إلى الصورة) مع أنها كانت في الزمن القديم مشهورة، ينزل حولها الآن فريق كبير من العزازمة.

زرتها مرارًا عديدة، كان آخرها في أوائل العام الفائت.

بئر الخلصة

٢- ذهب بعضهم إلى أنها مدينة رومانية يرجع عهدها إلى العصر الثاني ق.م. ولكن وولي ولورنس عثرا بين الرسوم على كتابات نبطية تشير إلى استحكام

الصلات التجارية بين الخلصة والبطراء.

وقد عثرا أيضًا على كتابة «باللغة النبطية ولكن بالأحرف الآرامية» خوطب بها الملك أريطاس الذي لا بد وأن يكون أحد ملوك الأنباط في ذلك الحين.

من هنا يمكن الاستنتاج أن الخلصة أنشئت من قبل الأنباط لا من قِبل الرومان.

وأما رواية القس أسعد منصور في كتابه «جغرافية الكتاب المقدس» أنها هي «بارد» التي جاء ذكرها في الإصحاح الثاني من سفر التكوين، فإني لا أرى مبررًا لها، ولم أجد بين الباحثين من أيّدها.

٣- ولقد هبطها الرومان أيضًا، فعمروها، واعتبرها فريق من الباحثين من أقدم المدن البيزنطية في الجنوب. وجميع النقوش التي عثر عليها المنقبون «ما عدا النقوش النبطية المتقدم ذكرها» ترجع بالعهد إلى الدور البيزنطي الأخير.

ولقد ذكرها Jerome وسماها Elusa فقال عنها: إنها كانت مركزًا مهمًّا للعبادة كما أنها ذكرت في الخارطة الأثرية الموجودة في كنيسة مأدبا، والمصنوعة من الفسيفساء.

٤- كانت الخلصة ذات أهمية في التاريخ ويغلب على الظن أنها هي Elusath التي كانت في عهد تيؤدسيوس ذات مركز تجاري عظيم على طريق القدس- سينا عام ٥٣٠ بعد الميلاد، وعلى الطريق التي تربط العقبة بموانئ البحر المتوسط.

فقد كان التجار يأتون بالحرير من سيلان إلى مرافئ البحر المتوسط، ومن أواسط فلسطين إلى أقصى الشمال من سوريا.

وهذا كله كان يمر عن الخلصة التي كانت مركزًا مهمًّا للترانسيت في ذلك الحين.

ولذلك بنى فيها جوستانيان حصنًا منيعًا ومخفرًا كبيرًا للجنود.

٥- ولقد ذهب الباحثون إلى أن سكان الخلصة كانوا يربون على العشرين ألف نسمة، وقال آخرون[1]: إنهم ما زادوا في يوم من الأيام عن ١٠٠٠٠ نسمة.

ومهما يكن من أمرهم فإن الأراضي الزراعية التي حولها كانت كافية لإعاشة هذا العدد من النفوس وأكثر، ولكنهم لم يكونوا كلهم مزارعين بل كان الشطر الأكبر منهم تجارًا يعيشون من وراء الكسب والتجارة والأمتعة والبضائع التي كانوا ينقلونها من سيلان والمرافئ الهندية ومن جنوب بلاد العرب كالطيب والبهار والزمرد؛ فإنها كانت تنقل من الهند إلى العقبة وموانئ البحر الأحمر الأخرى، ومن هناك كانت ترسل برًّا إلى جنوب فلسطين وغزة، ومنها بحرًا إلى اليونان وسوريا الشمالية.

٦- كانت مركزًا دينيًّا، وفيها آلهة يقولون: إنها سامية الأصل، وقد كانت أيضًا مركزًا دينيًّا في عهد الرومان.

وفي العهد البيزنطي توسعت توسعًا كبيرًا قضى على القسم القديم منها حتى لم يبقِ منه أثرًا.

٧- ولقد وجدوا في الخلصة عددًا كبيرًا من النقود قديمة العهد، منها ما هو عربي ومنها ما هو روماني أو بيزنطي.

ولكن أكثر النقود التي وجدت هناك من زمن قسطنطين وأرقاديوس، كما أنهم وجدوا فيها قطعًا نحاسية منقوش عليها هذه الكلمات:

DOMINUS I PAULUS

---

(١) John Whiting.

٨- استولى المسلمون على الخلصة أثناء الفتوحات الأولى.

ولا شك في أن تاريخ سقوطها بأيديهم يوافق التاريخ الذي شرع فيه عمرو بن العاص يستعد لفتح مصر في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب.

ولم أعثر في الكتب التي تصفحتها على أي ذكر للخلصة بعد ذلك التاريخ.

إن أكثر أحجار الخلصة نقل في العهد التركي إلى غزة حيث استعمل هناك في بناء البيوت، كما أن قسمًا منها نقل إلى بئر السبع واستعمل في بناء مأذنة الجامع الكبير.

الفصل السابع
في
رحيبة

خربة واقعة في أراضي الصبحيين، وعلى بعد عشرين كيلو مترًا من السبع للجنوب.

كانت على جانب عظيم من الأهمية في الزمن القديم؛ إذ إنها واقعة على طريق مصر، وقد وجدت أيضًا على نفس الطريق التجاري التي وجدت عليه الخلصة بين الهند وجزيرة العرب وبين سوريا الشمالية وبلاد اليونان.

وسكانها كانوا تجارا ومزارعين في نفس الوقت، وعددهم كان يتراوح بين الثلاثة آلاف والأربعة[1].

٢- شوارعها ضيقة، لكن أبنيتها متناسقة، وفي وسطها ميدان صغير للعامة.

وجميع الطلول والآثار التي فيها تدل على أنها بيزنطية، إلا أن البئر التي فيها لم يعرف حتى الآن من الذي بناها، ومتى.

٣- الزراعة كانت مزدهرة في الزمن القديم، وكانت أحسن منها في هذه الأيام.

٤- هنالك من يقول أن رحيبة هي (Rehoboth) التي حفر فيها إسحاق بئرًا[2]. غير أن وولي ولورنس يدحضان هذا الرأي، ويقولان: إن البئر المذكورة لم تحفر إلا في العهد البيزنطي.

---

(١) John Whiting.

(٢) Ellthworth Huntington.

وهي بئر عميقة طولها ٣٠٠ قدم، ويغلب على الظن أنها حفرت بقصد تزويد الحمام الذي بجانبها بالماء.

٥- وهناك بالقرب منها تل يقال له «تل قصر الرحيبة» وهو عبارة عن خرائب لقلعة صغيرة أقيمت لحراسة طريق التجارة المتقدم ذكرها، وذلك في العصر الألفي الثاني ق.م.

الفصل الثامن
في
السعدي

١- خربة واقعة على بعد ثلاثة أو أربعة أميال من الخلصة للغرب، هي الآن بيد الصبحيين، كانت قرية صغيرة، وليس هناك ما يدل على أنها أنشئت قبل العهد البيزنطي.

ويظهر أنها كانت مصيفًا لسكان الخلصة.

وهي محاطة بالأراضي الزراعية الخصبة، والمظنون أن سكان السعدي هم الذين كانوا يزرعون هذه الأراضي ويفلحونها ويمدون أهل الخلصة -وأكثرهم من التجار- بما يحتاجون إليه من حبوب وخضار.

٢- وهناك بالقرب من السعدي مكان آخر مشرف على الرحيبة يقال له «سعد الرحيبة» ويظهر أن هذا كان مخفرًا أماميًّا لخفارة طريق الرحيبة والخلصة، إذ إن فيه آثارَ بروج شيدت في ذلك العهد.

الفصل التاسع
في
سبيطة

١- هي خربة واقعة في أراضي الصبحيين من العزازمة تبعد ٤٥ كيلو مترًا للجهة القبلية من بئر السبع.

تراها على يسارك وعلى بعد كيلو مترين من الطريق العام إذا ما سافرت من بئر السبع إلى العوجا.

٢- لقد اختلف في أصلها فبينا تقرأ في كتاب «جغرافية الكتاب المقدس» أنها هي «حرمة» المذكورة في الإصحاح ٤٥ من سفر العدد، إذ «غضب الإله على بني إسرائيل وعرضهم لنقمة العمالقة والكنعانيين فضربهم هؤلاء حتى أوصلوهم إلى حرمة» تجد وولي C. L. Woolley ولورنس T. E. Lowrence يخالفان هذا الرأي ويقولان: إنه ما كان لسبيطة أية صلة بالإسرائيليين، أو بأية أمة أخرى غير البيزنطيين؛ وذهبا إلى أنها لم تكن موجودة قبل العهد المسيحي.

ومن الدلائل التي ذكراها على صحة قولهما: أن أقدم فخار وجداه في خرائبها يرجع بالعهد إلى القرن الثالث والخامس بعد الميلاد، وأنهما لم يشاهدا أي أثر آخر تحت أطلالها.

وأما بالمر Palmer ورولاند Rowland من قبله وكذلك بعض الكتاب المتأخرين فقد ذكروا أن سبيطة أقدم عهدًا من زمن البيزنطيين وأنها هي الصفاة التي جاء ذكرها في الإصحاح الأول من سفر القضاة.

ومهما كان من أمر وجودها في عهد التوراة أو عدمه فإنه لمن الصعب أيضًا أن

يعتقد الإنسان أنها من وضع البيزنطيين فقط، إذ إن المنقبين عثروا فيها على آثار نبطية كتلك التي تراها في عبدة.

وقد أيد هذا القول الأب باروا Pére Barroi مدير مدرسة الآثار اليسوعية في القدس.

٣- آثارها تدل على أنه لم يكن فيها نبع في الأزمنة المتقدمة وما كان فيها سوى صهاريج وهو ما يسميه البدو بالهراب في الوقت الحاضر، ويظهر أن هذه كانت كثيرة العدد بحيث كان لكل بيت واحد منها. وشوارع البلد كانت مرصوفة بميل يساعد على انحدار ماء المطر فيها إلى الصهاريج.

وكان فيها أيضًا أحواض كبيرة غير هذه الصهاريج.

٤- أنها وإن كانت بلدة صغيرة[١] لا أثر للترتيب في بيوتها ولا في شوارعها، إلا أنها كانت مركزًا دينيًّا هامًّا؛ إذ إن فيها اليوم بقايا ثلاث كنائس قديمة: واحدة (انظر إلى الصورة) في الطرف الأقصى من الشمال، وأخرى في الجنوب، وثالثة مقابل أحواض الماء المتقدم ذكرها، وكلها مبنية على نسق الكنائس البيزنطية التي تراها في المدن الأخرى.

---

(١) قال المستر جون وايتنغ أن عدد الأنفس فيها كان يتراوح بين العشرة آلاف والاثنى عشر ألفًا.

خرائب سبيطه

وترى المؤلف واقفًا في محرب كنيسة بيزنطية قديمة وعلى يساره دليل من عرب الصبحين

٥- ويظهر أن سكان سبيطة الأقدمين كانوا يزرعون أراضيهم بأيديهم؛ أي: أنه ما كانت عندهم طبقات مختلفة من الناس.

ويعتقد البعض أن السهل الذي حولها كان مزروعا عنبًا وزيتونًا.

وإني ميال لتصديق هذه العقيدة.

إن شجرة واحدة من الزيتون القديم لا تزال قائمة في ذلك السهل، كما أنه يوجد بالقرب منها وادٍ يدعى في يومنا هذا «وادي الزياتين».

٦- أما بيوتها وإن تكن مهدمة في الوقت الحاضر إلا أن آثارها تدل على أن نسقها الهندسي كنسق البيوت في بئر السبع في وقتنا هذا: ردهة مفتوحة الجبهة، وعلى جانبها غرفتان لكل منهما باب يدخل من الردهة، وهذه تطل مع نوافذ الغرفتين على باحة الدار الخارجية أو الجنينة إن كانت هناك جنينة.

ويظهر أن الخشب كان آنئذ نادر الوجود أو مفقودًا بالمرة كما هي الحال في هذه الأيام، فإنك لا تجد للخشب أثرًا في البناء، والخزانات كن ينقبن في الجدران.

ويندر وجود النقوش والزينات في بيوت سبيطة، تلك البيوت التي شيدت على طريقة «العقود» المعروفة في القدس وفي باقي المدن الفلسطينية القديمة.

٧- ولقد هدمت سبيطة بالعنف والقسر، إذ إن آثارها تدل على أن أهلها عندما هوجموا من لدن أعدائهم سدوا أبوابها بالحجارة الضخمة، وأقاموا السدود في وسط الشوارع ليحولوا دون تقدم هؤلاء الأعداء فيما إذا اجتازوا الأبواب، ويظهر أنهم لم يستطيعوا أن يقاوموا أكثر مما قاوموا فاضطروا لمغادرتها كلهم معًا وفي يوم واحد.

ولم تقم لسبيطة قائمة بعد ذلك التاريخ.

الفصل العاشر
في
المشرفة

هي خربة واقعة في أراضي الصبحيين وعلى بعد كيلو مترين للجهة الغربية من سبيطة، واقعة على تل صغير مشرف على سهل مقرح الفسيح الذي يحدها من الشرق والشمال (انظر إلى الصورة).

خربة مشرفة

٢- لم أعثر على هذا الاسم في «جغرافية الكتاب المقدس» إلا أن الاختلاف في الرأي الذي نشب بين وولي ولورنس من جهة وبين بالمر ورولاندس من جهة أخرى حول سبيطة نشب هنا أيضًا.

فترى الاثنين الأولين يقولان: إنها بيزنطية الأصل، لم يكن لها وجود قبل العهد المسيحي.

وتجد الاثنين الأخيرين يقولان: إنها كانت في العهد القديم، وقد بناها العموريون.

ومن رأي هذين الآخرين أن اسم مشرفة الأصلي «الصفاة» ولما كانت سبيطة أكثر أهمية منها نقلوا إليها (أي إلى سبيطة) هذا الاسم، وأعطوا مشرفة لقب «حرمة».

٣- يوجد على رأس التل بقايا بيوت بالية، وآثار كنيسة مهدمة، وفيها صهاريج وحولها أكوام من حجارة الصوان الصغيرة، كانت كلما مررت بالقرب منها (انظر إلى الصورة) أظن أنها وضعت في زمن الأتراك على هذا الشكل خصيصًا لتمهيد الطريق.

وكم كان عجبي شديدًا عندما علمت أنها صنعت في العهد البيزنطي خصيصًا لصيانة أغراس الكرمة.

بين سبيطة ومشرفة

المؤلف يبحث عن جذور أغراس الكرمة القديمة

الفصل الحادي عشر
في
أم صربوط

١- ويسمونها «خربة عمرة» بالنسبة إلى عمرة أم حسان وجدة الشيخ جدوع الأعسم.

وهي خربة قديمة واقعة على ضفة «وادي عوجان» وعند ملتقى الوادي المذكور بالدرب السلطاني التي تصل السبع بالخليل.

بينها وبين السبع ستة كيلو مترات فقط.

٢- أخبرني سلام أبو محفوظ -والخوف آخذ منه مأخذه- أنه عثر على بئر قديمة بجانب الخربة المذكورة، وعلى جمجمة وعظام بشرية في قعرها.

وقد زرتها بتاريخ ٨/ ١١/ ٣٢ وكان معي الدكتور سليمان سليم السماعين فوجدت أن ما قاله لي هو عين الواقع.

ورأيت الأتربة المرفوعة على أثر الحفر الجديد والجمجمة والعظام التي يدل تركيبها على إنسان طويل القامة.

فوهة البئر مستديرة، قطرها ثلاثة أمتار، والطراز المعماري القديم المتبع في تشييدها مزيج، يظهر أن يد الإنسان عملت فيه في العهدين الروماني والبيزنطي.

وعلى جانب البئر ثلاثة جرون مقعرة، لكنها صغيرة، صنعت من الحجارة، وهي من طراز الجرون التي تستعمل في حمامات القدس والتي بنيت على الطراز الهندسي البيزنطي القديم، وقد يكون هناك حمام قديم، عفت آثاره، للسبب الذي عفت به آثار الخربة القائمة على جانبه.

٣- حدثني بعض العربان أن على بعد بضعة أميال من هذه البئر للشمال بركة كبيرة، يربطها بالبئر وبالخربة طريق معبدة مطمورة تحت التراب، وأن لهذه البركة بقايا يراها المرء تجاه بئر السقاطي وعلى الجانب الثاني من الطريق.

بحثت عن البركة المذكورة فعثرت عليها، وهي واقعة في «وادي الضيقة» وفي أراضي الرماضين؛ يفصل بينها وبين بئر السقاطي الدرب السلطاني.

لكنني لم أعثر على أي أثر للطريق أو السرداب الذي يقولون: إنه كان يربط البركة بالخربة، وهأنذا لا أزال أبحث، ولعلي أوفق لاكتشاف ذلك قبل الانتهاء من طبع هذا الكتاب.

٤- لم يبقَ من الخربة سوى أحجار صغيرة مبعثرة، وبضع هرابات (أحصيت ستًّا منها فقط) من الهرابات القديمة التي كانت معدة لخزن الحبوب.

وأما حجارة الخربة فقد نقلها -واحسرتاه- وحطمها المتعهدون الذين استعملوها في تعبيد الطريق بين السبع والخليل، وذلك في عهد الأتراك يوم قاموا بالتجنيد العام.

وقد حدثني سلام أبو محفوظ أنه رأى الحجارة بعينه يوم نقلت واستعملت في تعبيد القسم الواقع بين «وادي أبي حشيش» و«وادي أم سدرة» من الطريق المتقدم ذكرها.

وهناك قسم من الحجارة نقله أحد وجوه السبع «داود أفندي خليل الكاتب» لبناء عمارته في بئر السبع.

الفصل الثاني عشر
في
عبدة

١- إنها واقعة في أراضي الجنابيب وفي وادٍ يقال له «وادي الرملية» وعلى مسافة مرحلة واحدة من جنوب بئر السبع.

٢- هي منازل منقورة في الصخر، ومجموعها يؤلف جبلا صغيرًا مشرفًا على واد من حوله جبال. وهي مصنوعة من أحجار كلسية داخلٌ بعضها في بعض، فتراها كأنها عش نحل، زرتها عام ١٩٣٠م.

٣- ليس في الموقع الذي بنيت فيه عبدة ما يدل على أنه كان موقعًا زراعيًّا.

ولا شك في أن الأقدمين قد اختاروا ذلك المكان لسبب تجاري، وأنشئوا فيه المخافر اللازمة لحماية المواصلات التجارية؛ إذ إنها واقعة عند ملتقى الدربين الموصلين إلى البتراء: درب الخلصة، ودرب غزة.

٤- اختلف في تعيين الزمن الذي أنشئت فيه، فمن قائل إنها من وضع الأنباط الذين أسسوا دولة في البتراء «وادي موسى» ومن قائل إنها ترجع بالعهد إلى ما قبل ذلك بكثير. ويقولون: إنها سميت كذلك باسم أحد أقرباء سيدنا إبراهيم.

٥- ولقد عثر المنقبون فيها على بقايا معبد نبطي كبير، يقولون: إن بطل الأنباط الشهير عبودا (Obodas) قد أنشأه، وعلى بقايا من العهد الروماني، وعلى مدينة وكنيسة بيزنطيتين، ولكن أكثر الفخار الذي وجدوه فيها يرجع عهده إلى العصر الثالث أو الثاني ق.م.

كما أنهم عثروا حول عبدة وتحتها على آثار استنتجوا منها أنه كانت هناك بلدة

متوسطة الحجم وأن نفوسها كانوا ٨٠٠٠ نسمة[١] وفيها قبور شبيهة كل الشبه بالقبور التي في البتراء.

٦- وقد كنت أظن أن عبدة كانت آخر حصن للأنباط لوجودها على طريق التجارة التي تربط البتراء بمرافئ البحر المتوسط، إلا إن وجود نقوش وآثار نبطية في الخلصة قد غير فيَّ هذا الظن، وأصبحت معتقدًا أن سلطان الأنباط قد امتد في تلك الأزمان إلى أبعد من ذلك.

٧- ولقد استفاد الرومان والبيزنطيون من موقع عبده، فاستغلوه، وأنشأ جوستانيان فيها -كما أنشأ في غيرها- قلاعًا وحصونًا وثكنات للجنود؛ كل ذلك في سبيل الدفاع ضد العرب، وعلى قولٍ ضد الفرس الذين خاصموا الرومان، ولم ينفكوا عن مناوأة البيزنطيين أيضًا.

٨- خربت عبدة النبطية بعد خراب البتراء، خربها الرومان، ولم تسترد مكانتها الأولى إلا عندما انتعشت الحركة التجارية على طريق الخلصة- العقبة؛ عندئذ شرع الرومان يبحثون عن بقايا الأنباط، وأخذوا يستعملون حجارتهم في إنشاء الحصن والدير وباقي الأبنية التي شادوها هناك، وقد اتخذ هؤلاء قبور الأنباط مساكن لمهاجريهم.

---

(١) John Whiting.

الفصل الثالث عشر

في

عصلوج

١- ليست اليوم سوى مخفر بوليس حوله ثلاثة آبار ذات مياه عذبة يشرب منها جنود المخفر والعرب المجاورون لها من عصيات، وفراحين، وصبيحات وغيرهم.

بئر عصلوج

٢- إن المنطقة الواقعة بينها وبين «بيت به له ت» كانت حوالي ١٠٢٠ ق.م بيد جماعة من الفلسطينيين الرحل. ولما قام العمالقة بغزواتهم المعروفة أحرقوا عصلوج ونهبوا كل ما وجدوه فيها.

٣- فيها مأذنة من بقايا الأتراك في الحرب الكونية وقد اتخذتها الحكومة الفلسطينية مستودعًا مهمًّا لجمع المئونة والأرزاق ومعدات الكفاح وتوزيعها عندما طغى الجراد بسيله على هذه البلاد عام ١٩٣٠م.

٤- تبعد الآن عن السبع أربعًا وثلاثين كيلو مترًا للجنوب، وهي واقعة على

الطريق العام التي تربط هذه بالعوجا والتي عبَّدها الأتراك أثناء الحرب الكبرى.

٥- ذهب مؤلف «جغرافية الكتاب المقدس» إلى أن عصلوج هذه هي «صقلغ» الذي جاء ذكرها في الإصحاحين ١٥ و١٩ من سفر يشوع (إذ أعطاها أخيش لداود فأقام فيها سنة وأربعة شهور)، وفي الإصحاح ٣٠ من السفر نفسه (يوم أحرقها العمالقة في غياب داود وسكنها بنون يهوذا بعد السبي).

خرائب عصلوج

ولكن الأب باروا Pére Barroi مدير مدرسة الآثار الفرنسية في القدس يشتبه في هذه الرواية التي يظهر أن العالم الأثري الجليل السير فلندرس بتري أيضًا قد قال بها.

وهناك من يقول أن «صقلغ» هذه هي زحيليقة وليست عصلوجًا، وزحيليقة في شمال السبع وهي من أملاك بني عقبة في الوقت الحاضر، وبينها وبين عصلوج مسافات طوال.

الفصل الرابع عشر
في
العوجا

١- هي في الوقت الحاضر قرية صغيرة ليس فيها سوى مخفر للجنود مجهز باللاسلكي، ومطحنة يأتي إليها العربان المجاورون لطحن حبوبهم في بعض أيام السنة، وهي من أملاك الصبحيين «عزازمة» واقعة في منتهى سهل يقال له «القصوم» وعلى حافة الوادي المعروف بوادي الحفير. وليس بينها وبين الحد المصري سوى جبل يقال له «أم طيران» وآخر يدعى «أم حواويط» وهما على بعد ثلاثة كيلو مترات منها ليس إلا.

تبعد عن السبع سبعًا وسبعين كيلو مترًا من الجهة الجنوبية الغربية، وتربطها بها طريق معبدة أنشأها الأتراك أثناء الحرب الكونية ١٩١٤-١٩١٧م.

٢- يغلب على الظن أنها بيزنطية الأصل وقيل[١] أنها هي «عاصم» التي جاء ذكرها في التوراة «راجع الإصحاحين الخامس عشر والتاسع عشر من سفر يشوع» إلا أني لم أعثر في الكتب الأخرى على ما يؤيد هذه الرواية أو ينقضها.

٣- لم يعثر الناقبون بعد على آثار للاحتلال الروماني فيها، وإنما عثروا على آثار ترجع إلى العهد البيزنطي. وفيما كان البناءون في العهد التركي عام ١٩١١م يحفرون أساس المضافة التي أقاموها هناك عثروا على أرض مرصوفة بالفسيفساء[٢] يرجع عهدها إلى سنة ٤٣٥ بعد الميلاد، وكتابة تشير إلى أن راهبًا يدعى «سرجيوس»

---

(١) جغرافية الكتاب المقدس.

(٢) (Palestine & Transformation) by (Ellthworth Huntington).

وصديقًا له يسمى «يالوت» وامرأة «محي اسمها مع تقادم العهد» وابنها القسيس يوحنا أنشئوا فيها كنيسة للتعبير عما في أفئدتهم من امتنان وشكر لله الذي أنقذهم في ساعة الخطر.

وهناك كتابات أخرى تدل على أن العوجا كانت في العصر الخامس للميلاد مدينة ذات أهمية، وأنها ظلت أعوامًا طوالا في نمو وازدهار.

ولقد استنتج بعض العلماء الذين بحثوا عنها واستنطقوا آثارها أن عدد سكانها كان يربو على عشرة آلاف[١]، وقال آخرون[٢]: إنهم كانوا يتراوحون بين الستة والسبعة آلاف نسمة.

٤- زرتها مرارًا عديدة في بحر السنوات الأخيرات، واليوم زرتها مرة أخرى. وهأنذا أدوِّن ما علق في ذهني من ماضيها وآثارها.

ويظهر من هذه الآثار ومن أساسات البنيان التي عثر عليها الباحثون أن شوارعها وأبنيتها كانت مزدانة بالأعمدة من الطراز البيزنطي البسيط وأنه كان فيها شارعان متوازيان يبعد الواحد منهما عن الآخر مائة مترا، وطول كل منهما مائتا مترًا.

٥- هي من المدن التي أنشأ فيها جوستانيان قلاعًا حصينة، وثكنات للجنود ليتمكن من صدّ غارات العرب، وعلى قول الفرس الذين خاصموا الرومان، ولم ينفكوا عن مخاصمة البيزنطيين أيضًا.

إن هذه القلعة خلافا للقلاع والحصون التي أنشئت في جهات أخرى[٣] أسست لغايات حربية فقط لا لغايات تجارية؛ لأن العوجا كانت بعيدة عن طرق التجارة

---

(١) Ellthworth Huntington.

(٢) John Whiting.

(٣) Woolly & Lawrence.

القديمة التي كانت تمر من «بير بيرين» بالقرب منها، ولا تمر منها.

وإذا ما صعدت إلى رأس الجبل المطل عليها من الجهة الشمالية الغربية رأيت آثار الحصن المتقدم ذكره والسور الذي كان يحيط به.

كما أنك ترى آثار الكنيسة التي أنشأها البيزنطيون فوق ذلك الجبل، والبئر التي كانوا منها يستقون وهم في داخل الحصن.

وهناك غير هذه الكنيسة آثار كنائس ثلاثة في القسم السفلي من المدينة، وجميع هذه الكنائس أنشئت بين العصر الرابع والسادس للميلاد يوم كانت النصرانية مزدهرة، وتعاليمها سائدة في جميع أنحاء سوريا.

٦- لقد اختلف فيما إذا كانت ذات أمطار غزيرة في العصور الغائرة، وفيما إذا كانت الأراضي التي حولها تخصب في زروعها: فمن قائل[١] أن الأمطار كانت قليلة وإن الجدب كان كثير الوقوع وأن هذه الأراضي كانت تنتج من الزرع ما يكفي لإعاشة الجنود المرابطين فيها فقط، وتعلل هذه الفئة وجود الأراضي الواسعة حولها مع أن السكان كانوا قليلي العدد بأنهم كانوا يخزنون الحبوب التي يحصدونها في سني الخصاب ويحتفظون بها لأيام المحل.

ومن قائل[٢] أن الجو كان في العصر السادس للميلاد أكثر رطوبة منه في يومنا هذا، وأن الأمطار كانت تهطل بغزارة، وأن العوجاء الموجودة الآن في قلب الصحراء القاحلة كانت آنئذ آهلة بالسكان الأغنياء الذين كان في مقدورهم أن يستحضروا الفسيفساء البديعة ويزينوا بها منازلهم.

---

(١) Woolly & Lawrence.

(٢) Ellthworth Huntington.

٧- لم يرد ما يؤيد في أي زمن هدمت العوجاء، أو في أي تاريخ هجرها أهلها، وجل ما نعلمه عنها أنها كانت في العصر الأخير مسرحًا للحروب والغارات بين الترابين والعزازمة من جهة، وبين هؤلاء والتياها من جهة أخرى، إلى أن أنشأت الحكومة العثمانية في زمن السلطان عبد الحميد الثاني مركزًا إداريًا فيها.

٨- أشار هانتغتون إلى أن أول قائمقام تولى أمرها جاءها بتاريخ ١٩١١.

مع أنني عثرت على نسخة من الإدارة السلطانية التي صدرت في هذا الصدد، ومنها نستدل أن الأمر بتأليف هذا القضاء صدر بتاريخ مارت ٣٢٤ (١٩٠٨م) وأن أول قائمقام عين لها هو «ميمنلي زاده محمد نابي بك».

كما أن هذه الإدارة نفسها نصت على تأليف «ناحية» في المليحة بالقرب منها مديرها سعد الدين أفندي الخليلي من وجوه القدس.

ومما يروى في هذا المقام أن الإدارة الملوكية نصت على أن يكون مركز القضاء الحفير لا العوجاء.

ولما جاء أكرم بك «متصرف القدس» إلى هذه البلاد ليقوم بتنفيذ الأمر رأى أن موقع الحفير الذي يبعد عن موقع العوجاء الحالي عشرة كيلو مترات للشرق لا يصلح للغاية التي أنشئ القضاء من أجلها، ولما كان يخشى مخالفة أمر السلطان أمر القائمقام بأن يقيم في العوجاء وأبرق إلى وزير الداخلية يقول له أنه عملا بالأمر السلطاني افتتح قائمقامية «العوجاء- الحفير» وبهذا يكون التاريخ قد أعاد نفسه؛ إذ إن الأتراك يكونون قد أقاموا مخفرًا على طلول المخفر الذي أقامه البيزنطيون قبل ألف وخمسمائة سنة بوجه التقريب.

٩- ولقد أنشأ الأتراك فيها مخفرًا للجنود، ومضافة، ودارًا للحكومة؛ ولكنها بالرغم من ذلك لم تستعد مكانتها الأولى إلا في الحرب الكونية يوم زحف الأتراك

على قناة السويس؛ واتخذوها مستودعًا للذخيرة ومركزًا لحركاتهم الحربية (انظر إلى الصورة) فما كنت ترى في ذلك العهد سوى الجنود، والمخافر، والثكنات، والماكنات، والخيول، والآلات الحربية وغير الحربية، فعبَّدوا الطريق التي تصل السبع بسينا وأنشئوا فيها محطة كان يقف فيها القطار الحديدي الذي يجيء من بئر السبع وينتهي في وادي العريش في سينا، كما أنهم أقاموا المستشفيات[1] ونظفوا الآبار القديمة ونصبوا فوق هذه الآبار المضخات لسحب الماء.

عوجا - الحفير

١٠- وما دمنا عند ذكر الآبار نحب أن نذكر لك أن فيها الآن سبع آبار كلها قديمة العهد، وهي:

١- بئـــر القلعـــة : على رأس التل

٢- بئـــر النـــشل: يستقي الآن منه العربان

٣- بئـــر المـــضخة: أمام المضافة

٤- بئـــر البـــابور: استأجره المرحوم داود أفندي خليل وأنشأ عليه مطحنة

(١) كان يشرف على بناء هذه المستشفيات والأبنية الأخرى مهندسون من الألمان، ولكنها لم تستعمل؛ إذ احتل الإنكليز العوجاء قبل إتمام بنائها ١٩١٧م.

٥- بئر أبو حواويض: أنشأ الأتراك حوله الأحواض ليسقوا منها الدواب

٦- البئر المطمور: يظهر أنه لم يستعمل منذ العهد البيزنطي

٧- بئر المحطة: عمره الأتراك أثناء الحرب، ولكنه ردم بعد ذلك

١١- ظلت العوجاء بعد الاحتلال الإنكليزي مركزًا إداريًا مرتبطًا بقضاء بئر السبع فيه قائمقام يرجع مخابراته إلى قائمقام بئر السبع، وفيه مدرسة صغيرة حتى عام ١٩٣٢م حيث قررت الحكومة إلغاء المدرسة والقضاء كله، والاكتفاء بمخفر صغير فيه عديد قليل من الجنود وجهاز لاسلكي أسسته في تلك السنة لأجل توطيد الأمن.

الفصل الخامس عشر

في

كزنب

خربة واقعة في أراضي القديرات والظلام.

وهي على سفح أكمة صغيرة بين جبلين رفيعين، القبلي منهما اسمه القناصية والشرقي الزليقة، في منتهى سهل السر الشرقي وعلى الطرف الغربي من سهل تربية الفسيح.

تبعد أربعون كيلو مترًا عن السبع من جهة الشرق للجنوب، وتربطها بها طريق وإن كانت غير معبدة لكنها سهلة تعبرها السيارات من غير خطر.

زرتها مرارًا، وكنت في كل مرة أقف منذهلا تجاه عظمة الماضي، ولا سيما تجاه السدود القديمة التي أنشئت حولها للاستفادة من مياه الأمطار.

٢- ذهب البعض إلى أنها هي ثمارا (Thamara) المذكورة في خارطة (Pentinger) بأنها واقعة في طريق البتراء وعلى بعد ٥٣ ميلًا رومانيًا من القدس.

ولقد قرأت في «جغرافية الكتاب المقدس» أنها قد تكون «بعل» التي ذكرت في الإصحاح الرابع من الأيام الأول أو «بعلون» المذكورة في الإصحاح ١٥ من سفر يشوع بأنها كانت من نصيب بني يهوذا، أو «بعلة بئر رامة» المذكورة في الإصحاح ١٩ من السفر نفسه يوم دخلت في سبط بني شمعون، أو «رامون الجنوب» التي جاء ذكرها في الإصحاح ٣٠ من صموئيل الأول (إذ كان داود يتردد إليها وقد أرسل إلى من فيها قسمًا من غنائمه).

٣- وقد عثر المنقبون فيها على آثار رومانية (إذ قال أوسابيوس وجروم: إنها

قلعة حصينة وفيها مخفر روماني)، وأخرى بيزنطية يظهر أنها من عهد جوستانيان. (انظر إلى الصورة).

خربة كرنب
المؤلف يبحث بين الطلول

٤- يظهر أن كرنب كانت ذات أهمية في التاريخ، إذ إنها واقعة على طريق التجارة التي كانت تربط القدس بالبتراء، والخليل بالعقبة.

وبمقدار ما كان لها من أهمية في عالم التجارة كانت لها أهمية من الوجهة الحربية؛ إذ بنى الأقدمون فيها الحصون والقلاع، لا لغرض سوى حماية طرق التجارة المتقدم ذكرها.

٥- كانت كرنب مبنية على رأس التل، ومنه تنحدر قليلًا إلى سفحه الشمالي. كانت محاطة بسور علوه ثلاثة أمتار، أنشئ خصيصًا لصد غارات الأعداء.

وفي كل زاوية من زوايا هذا السور برج، وللسور بابانً وهناك كنيستان وبنايتان كبيرتان يظهر أنهما كانتا مركزًا لمصالح الحكومة، ودور أخرى صغيرة يظهر أنها خصصت مسكنًا للجنود.

٦- وقد كانت جميع الأراضي التي حولها معدة للزراعة، كما هي الآن، ويظهر

أنهم أنشئوا السدود حولها لمنع تسرب مياه الأمطار التي تهطل إلى الوديان التي بالقرب منها، وبذلك تمكنوا من إرواء تلك الأراضي الفسيحة التي تحدها من الشمال والغرب. ويؤكد وولي ولورنس أن تلك الأراضي كانت مغروسة بأشجار الزيتون، كما أنه كان فيها كروم للعنب لا تحصى، وقد حدثني مشايخ القديرات النازلين حول كرنب في الوقت الحاضر أنهم عثروا على قرامي أشجار التين المزروع في عهد الرومان.

والسدود التي حول كرنب أربعة: طول الأول ٢٤ مترًا وعرضه ٥ أمتار إلى ٦.

وإذا رأيته اعتقدت أن البنائين لم ينتهوا من بنائه إلا قبل أيام قلائل.

وطول الثاني ٢٠ مترًا والثالث ٢٥ مترًا.

وهذه السدود الثلاثة في الجهة الغربية من البلد، وهناك سد رابع في الوادي الشرقي، غير أنه صغير طوله ٢٠ مترًا وارتفاعه ثلاثة أمتار، وهو أقل مناعة من السدود الثلاثة الأخرى بالنظر لبعده عن مجرى السيول القوية التي تتدفق من الغرب.

٧- وهناك خربة صغيرة يسميها القديرات «حميدة البئر» على مسافة عشر كيلو مترات من شرق كرنب يظهر من حجارتها ومن موقعها أنها كانت مخفرًا صغيرًا أو نقطة أمامية لمخفر كرنب الكبير.

وعلى بعد عشر كيلو مترات أخرى من «حميدة البئر» للشرق خربة صغيرة أخرى يسمونها «قصر مرقب ضانا» لا شك عندي بأنه أقيم خصيصًا لحفارة الدرب التي تصل كرنبًا بالنقاب[1] المطلة على وادي العربة، وكذلك هي الحال مع خربة

(١) المسالك الوعرة التي تمر من الجبال.

أخرى على بعد عشر كيلو مترات لشرق المرقب تدعى «قصر الفرش» أو «الجهينية» ومن هذا إلى «قصر مزل نياق السعيدني» «فالمطلع» المطل على «عين عروس».

وكما أن هذه المخافر الأمامية أقيمت لرصد الدرب المؤدية إلى كرنب من الشرق فإن هناك مخافر أمامية مثلها أقيمت لرصد هذه من الغرب، مثل قصر «أبي طريفي» فـ «رجم البلوى» فـ «قصير السر» فـ «قصر الثلمة» فـ «عرعرة» فـ «المذبح» فـ «خشم زنة» وهكذا حتى السبع.

٨- إذا ذكر أهل هذه البلاد كرنبًا ذكروا معها البترول، وقالوا: إن الفرنجة اكتشفوا فيها ينابيع البترول.

والحقيقة أن فريقًا من الأوروبيين بحثوا فعلا عن البترول، ولكن لا في كرنب نفسها، وإنما في المنطقة الواقعة بين هذه والبحر الميت.

ولقد وصلت القناعة في البعض منهم -إن لم أقل كلهم- أن البترول موجود في تلك المنطقة.

غير أن هذا البعض لا يزال مترددًا في تعيين المسافة التي قد يعثر فيها على البترول في بطن الأرض؛ فمن قائل أنها لا تقل عن الألف وخمسمائة مترًا، وهناك فريق لا يعتقد بوجود البترول بغزارة تبرر النفقات الجسيمة التي سوف تنفق في سبيل استخراجه وسحبه إلى إحدى موانئ البحر القريبة[1]، وإليك أسماء البعثات التي جاست خلال الديار في هذا السبيل:

(أ) بعثة لينش (Lynch) الأمريكية عام ١٨٤٩م

(ب) بعثة دوق دولاينس (Duc de lynes) الأفرنسية عام ١٨٦٤م

---

(١) غزة أو العريش.

(ج) بعثة مستر هل (Hull) الإنكليزية عام ١٨٩٣م

(د) بعثة هر بلونكن هورن (Blonkenhorn) الألمانية ١٩١١م

(هـ) مستر د.ب.براون (D.B.Brown) الاختصاصي في طبقات البترول عام ١٩١٢م

(و) الأستاذ دوي (Doy) من بيروت عام ١٩١٢م

(ز) الدكتور أرثور (Arthur) عام ١٩١٣م

(ح) شركة الكاز التركية وشركة التنقيب السورية معًا عام ١٩١٤م

(توقفتا عن العمل بسبب الحرب ثم ألغي امتيازهما عام ١٩١٩م لأسباب سياسية).

(ط) شركة دارسي[1] (Darcy) عام ١٩١٩م

(ي) أن أكبر شركة خاضت غمار البحث عن البترول هنا هي «ذي ستاندارد أويل كومباني The Standard Oil Company عام ١٩١٤ - ١٩١٧م وهي الشركة التي ألفها إسماعيل بك الحسيني وسليمان بك نصيف وسليم بك أيوب.

ويظهر أن معظم مساهميها كانوا من الأمريكان، حصلوا على رخصة للتنقيب قبل الحرب حتى إنهم شرعوا بتهيئة جميع المعدات اللازمة لهذه الغاية واستحضروا قسمًا كبيرًا من المواسير وضربوا خيامهم في كرنب وتل الملح، وعمروا البئر الصغيرة في تل الملح، كما أنهم قاموا بتعبيد الطريق من الخليل حتى سهل رقعة عن طريق وادي القاضي والفحص وسيل العويوي وإنجيلة والبويرة وخربة رقعه.

---

(١) إنها فرع لشركة البترول الإنكليزية - الإيرانية.

وقد كانوا ينوون تعبيدها حتى تل الملح فكرنب لولا أن اشتعلت نيران الحرب الكبرى وخاضت أمريكا غمرتها بجانب الحلفاء أعداء تركيا.

ولقد عادت هذه الشركة فور انعقاد الهدنة فأسرعت في إرسال خبرائها؛ بيد أنها منعت عن استئناف العمل قبل إتمام الصلح مع تركيا.

ولكنها ظلت تتأهب إليه إلى أن انتهت المفاوضات التي كانت تجري بينها وبين الشركات الأخرى «كالشركة الإنكليزية- الإيرانية، والشركة الإفرنسية والشركة الهولندية» في صدد ينابيع البترول في الموصل.

ولم تتخل عن امتيازاتها السبعة في هذه المنطقة إلا بعد أن أمَّنت مصالحها هناك.

(ك) وفي عام ١٩٢٥م حصل إسماعيل بك الحسيني على رخصة للتنقيب انتهى اجلها عام ١٩٣٢م ولم تجدد.

(ل) ولقد منح مستر سازرلاند (Southerland) عام ١٩٣٠م امتيازًا للبحث والتنقيب عن البترول في الأراضي الواقعة بين كرنب والبحر الميت.

(م) ومنح الخواجة إلياس جلاد في هذا العام امتيازًا مثل هذا للبحث في المنطقة المتاخمة لمنطقة سازرلاند من الجهة الغربية وفيها كرنب.

٩- أن هذه البحوث عن البترول في كرنب ووجودها على الطريق المؤدية إلى وادي العربة جعلها مهمة من الوجهتين الإدارية والعمرانية وفيها اليوم مخفر كبير.

الفصل السادس عشر

في

مشاش الملح

تاريخ المشاش شبيه بتاريخ تل الملح الذي بجانبه.

فيه حفائر ماء وقلعة قديمة مهدمة، لكن خرائبه مبعثرة فإنك تجد هنا وهناك بقايا فخار بيزنطي، وبعض آثار من الدور العربي.

وهناك من يعتقد بالرغم من ذلك أن المشاش عرف قبل ذلك بزمن كبير، ولربما عرف في الدور الواقع بين ١٨٠٠- ١٢٠٠ ق.م.

الفصل السابع عشر
في
الوطن

١- خربة واقعة في أراضي قديرات أبي كف وفي استقامة خربة حورة. لكنها أقرب منها إلى السبع.

٢- فيها صهاريج كثيرة، ذات عهد قديم.

٣- إنها ذات أراض خصبة، كذلك كانت في الماضي، وكذا هي اليوم.

٤- وجدوا فيها بقايا فخار من الدورين الروماني والبيزنطي، وبعض آثار يرجع عهدها إلى الدور الواقع بين ١٨٠٠- ١٤٠٠ ق.م.

الفصل الثامن عشر
في
تل الحسى

تل كبير على بعد ستة عشر ميلا من غزة للجهة الشرقية الشمالية، واقع على ضفة واد يدعى «وادي الحسى» وفي أراضي الجبارات من عربان السبع تحيط به أراضي خصبة وفي جواره ينابيع ماء وإن لم تكن غزيرة إلا أنها كافية لإرواء العشائر النازلة هناك وإسقاء مواشيهم.

٢- قام السير فلندرس بتري بالبحث والتنقيب في هذا التل عام ١٨٩١ للميلاد في عهد المتصرف التركي في القدس رشيد باشا، ودوَّن نتيجة أبحاثه في كتاب طبعه في لندن وسماه (Tel El-Hesy) أو (Lachish) وبعد أن كان يعتقد أن قرية «أم القيس» الحالية هي (Lachish) المذكورة في التوراة وأن خربة «عجلان» هي (Eglon) عاد على أثر هذا البحث فغير اعتقاده وأصبح من القائلين[1] أن «لاخيش» التاريخية كانت في موقع «تل الحسى» الحالي. وهناك من يدحض هذا الرأي.

٣- يظن أن «لاخيش» هذه قد أنشئت في العصر السابع عشر ق.م وفي أوائل عهد الأسرة الثامنة عشرة عندما شرعت مصر في فتوحاتها الاستعمارية، وعندما شعر السوريون بالحاجة لإقامة الأسوار الضخمة حولها وحول المدن الأخرى ليتمكنوا من صد غارات المغيرين.

٤- لم يعثروا في التل على آثار مصرية. وإنما عثروا فيه على آثار فينيقية يرجع تاريخها إلى ١٤٠٠- ٨٠٠ ق.م ويظهر أنها خربت تخريبًا فظيعًا حوالي ١٢٠٠ ق.م

---

(١) إن أول من قال هذا القول هو Major Conder.

يوم كان النزاع مستمرًا بين حضارة العموريين الزاهرة والمدينة اليهودية في عهد القضاة.

ويقول السر فلندرس بتري: إن عهد القضاة هذا كان على درجة قصوى من الهمجية يوم كانت لا تهدأ فيه حرب حتى تنشب أخرى ولا يندثر فيه ظالم حتى يحل مكانه ظالم آخر.

٥- إنها من المدن العمورية الخمس[١] التي اتحدت لتتمكن من صد غارات بني إسرائيل.

وأول ذكر لها نجده في عهد «رحبوم» ٩٦٠ ق.م.

وهناك أبنية من عهد الملك سليمان.

ثم أعيد تحصينها في زمن «يهو شافاط» ٩١٠ ق.م يوم أخضع هذا الفلسطينيين والعرب وأنشأ الحصون فيها وفي المدن الأخرى التابعة له.

٦- ولقد حصنها بنو إسرائيل مرة أخرى في زمن «سنجاريب» يوم قام هذا بغزواته ولكن تحصينهم هذا لم يجدهم فتيلا، إذ لم يمضِ عليه أكثر من يوم أو بعض يوم حتى وقعت في يد سنجاريب عام ٥٩٠ ق.م فدك هذا معالمها ولم يبقِ لها على أثر.

٧- ولما استقل بنو إسرائيل وتخلصوا من الآشوريين عادوا فحصنوها عام ٦٦٠ ق.م لا لأي من الأغراض المتقدم ذكرها بل لأنهم شعروا آنئذ أن «بسامتيك» في مصر يتحفز للوثوب عليهم؛ فبذلوا قصارى جهدهم لصد المصريين عنها؛ لأنها كنت تشرف على الطريق التي كانت في ذلك الحين تصل مصر بالقدس.

---

(١) هي أورشليم وحبرون ويرموت (Yarmuth) ولاخيش وعجلون.

٨- لقد كانت في تاريخ هذه البلاد بالدرجة الثانية بعد غزة من حيث الأهمية؛ إذ إنها واقعة على الحد بين سوريا ومصر.

وكانت أية أمة تعيش في أحد هذين القطرين توجه اهتمامها إلى تحصينها كلما فكرت في التعدي على جارتها أو في دفع أذاها عنها.

إنها لم تكن كمخفر فحسب بل نقطة تجارية جمركية أيضًا.

ويظهر أن «وادي الحسى» و«وادي قصابة» الموجود بالقرب منه كانا ذا مياه غزيرة لا تنقطع على طول أيام السنة.

حتى إن ريتشارد قلب الأسد اتخذ هذا المكان قاعدة حربية مرتين: مرة عندما عبر وادي الحسى أثناء مجيئه من الشاطئ، وأخرى عندما هبط الجنوب لقطع الطريق على قافلة تجارية كبيرة كانت آتية من مصر.

ومن هذا يفهم أن الصليبيين عرفوا هذا المكان ونزلوه وكان لهم فيه شأن حتى أنهم كانوا يسمونه Onnetum Esturnellorum.

٩- إننا لم نعد نسمع ذكرًا لها بعد ذلك التاريخ، وها هي اليوم مجموعة خرائب مطمور بعضها تحت بعض.